محمّد بودية السّنة الأولى ماستر

أستاذ محاضر تخصّص لسانيات تطبيقية

محاضرات في اللّسانيات وقضاياها

المحاضرة السّادسة : التّحوّل المنهجي للّسانيات من الوصف إلى التّفسير.

استمرّت الدّراسات اللّسانية بعد **سوسير**؛ في وصف الظواهر اللّغوية عموما والنّظام اللّغوي خصوصا؛ ذلك أنّ جميع اللّسانيّين الذين جاؤوا بعده واعتمدوا على محاضراته، لم يستطيعوا أن يخرجوا عن المنهج الذي رسمه وما كان اختلاف اللّسانيّين إلاّ في بعض الآليات، وفي تفاصيل الدّراسة اللّغوية. حيث ركّز كلّ لسانيّ على جزئيات وأبعاد معيّنة، في النّظام اللّغوي.

إلاّ أنّه بمجيء اللّساني **نوام تشومسكي (Noam Chomsky)** تحوّل المنهج الذي رسمه **سوسير** لدراسة اللّغة؛ ذلك أنّ **تشومسكي** لم يكتف بالوصف، وإنّما تعدّاه إلى التّفسير. وقد أعلن عن ذلك صراحة بقوله: « إنّ علم اللّسان البنيوي كان يقتصر على (وصف اللّغة)، دون الامتداد إلى (تفسيرها). والخطوة الجديدة (والجريئة) التي أخذ **تشومسكي** على عاتقه إنجازها، هي القيام بطفرة، تكون كفيلة بنقل (اللّسانيات) من المرحلة الوصفية، إلى مرحلة النّظرية أو التّفسيرية.».[1]

ومعنى هذا أنّ جميع الدّراسات والنّظريات اللّسانية؛ التي طرحت قبل أفكار تشومسكي، كانت تكتفي بوصف النّظام والأبنية اللّغوية الموجودة والظّاهرة ولكنّها لم تتعدّ ذلك، إلى محاولة معرفة وتفسير كيفية وطريقة حدوث هذه الأنظمة، ولماذا جاءت على هذا الشّكل ولم تأت على شكلٍ آخر. أو بمعنى أدقّ أنّها لم تحاول أن تبحث في الأسباب الحقيقيّة، التي أحدثت الأنظمة اللّغويّة، وجميع الظّواهر النّاتجة عنها.

[1] - وفاء كامل فايد، البنيويّة في اللّسانيات،مجلّة عالم الفكر، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب- الكويت. المجلّد 27، العدد 1. 1998. ص 247.

وبهذا فإنّ مفهوم التّفسير عند تشومسكي، يقوم على البعد الفلسفي والذّهني الذي ينطلق من طرح الأسئلة، النّاتجة عن الملاحظات الدّقيقة، لجميع الظّواهر اللّغويّة والبحث عن الإجابات اليقينيّة لهذه الأسئلة.

وقد أدّت التّساؤلات التي طرحها تشومسكي حول اللّغة وطبيعة معرفتها، إلى الغوص في أعماق العقل، والدّماغ البشري. ذلك أنّه توصّل إلى أنّ اللّغة ملكة عقلية و ذهنية، وليست ظاهرة نفسية. ولذلك لابدّ على اللّساني أن يصل إلى معرفة جميع ما يُسهم ذهنيّا وعقليّا، في إنتاج اللّغة وفهمها. وفي هذا يقول تشومسكي: «...يمكننا أن نتجاوز هذه الملاحظات – البديهيّات–، كما أظنّ إلى دراسة اللّغة البشريّة والعقل البشري. بما أنّ الدّماغ أو عناصره، مشمول نقديا في الظّاهرات اللّغويّة والعقلية الأخرى، فيمكننا استخدام المصطلح " عقل "– بشكل غير دقيق لكن بكفاية– في الكلام عن الدّماغ، منظورًا إليه من منظور خاصّ تمّ تطويره في أثناء الاستعلام في بعض مظاهر الطبيعة البشريّة و تمظهراتها.».[2]

وبناء على هذا فالهدف من البحث في الدّماغ البشري – بوصفه عضوا بيولوجيّا في الإنسان– وفي العقل بوصفه مصدرًا للتّفكير الذّهني، هو معرفة كيفية اشتغال الدّماغ والعقل، في عمليّة الإنتاج والفهم للّغة.

وكان من نتيجة هذا البحث؛ أنّ توصّل **تشومسكي** للإجابة عن بعض التّساؤلات الخاصّة باكتساب المتكلّم أو المتعلّم للغّة. حيث « يستطيع كلّ إنسان ينشأ في بيئة معيّنة، التّعبير بلغة هذه البيئة. وهذا يعني أنّ بإمكانه فهم عدد غير متناه من جمل هذه اللّغة، وصياغته، حتّى ولو لم يسبق له سماعه من قبل. وليست مقدرة الانسان هذه محدودة؛ بل بإمكانه في كلّ آن وبصورة

[2] - نعوم تشومسكي، آفاق جديدة في دراسة اللّغة والعقل، ترجمة عدنان حسن ،دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاّذقيّة – سورية. ط1، 2009.ص177

عفوية، فهم جمل اللّغة وصياغتها. يتمّ ذلك باتّباعه – في الحقيقة– قواعد معيّنة يكتسبها من ضمن اكتسابه اللّغة.».[3]

وقد أدّى هذا إلى ظهور أهمّ مفهومين ومصطلحين، في نظريّة النّحو التّوليدي التّحويلي؛ وهما مفهوما مصطلحي الكفاءة (Compétence) والأداء (Performance). ذلك أنّ الكفاءة، هي نظام القواعد الموجود في ذهن المتكلّم والذي يبني له المعرفة اللّغوية، ويمكّنه من إنتاج وفهم جمل لم يكن قد سمعها من قبل. كما يمكّنه من إعادة تشكيل وترتيب وبناء، جمل صحيحة نحويًّا. وتظهر هذه الكفاءة من خلال الأداء؛ أي الإنجاز الفعلي والواقعي للّغة الذي يظهر في كلام المتكلّم.[4]

وقد **ميشال زكّرياء**، المصطلحين بقوله: « الكفاية اللّغوية هي المعرفة الضّمنية باللّغة، في حين الأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للّغة ضمن سياق معيّن.».[5]

وعند ظهور هذين المفهومين، اتّجه علماء النّحو التّوليدي التّحويلي – وفي مقدّمتهم تشومسكي – إلى البحث عن إيجاد تفسيرات وتعليلات للجمل والتّراكيب التي يُنتجها المتكلّم ويفهمها المستمع، ذلك أنّ هذه الجمل تظهر في صور وأنماط تركيبيّة متعدّدة ومختلفة، ممّا يستدعي البحث عن كيفية تركيب هذه الجمل والتّراكيب.

ومن أحدثِ التّفسيرات التي قدّمها تشومسكي في آخر طروحاته في نظريّته، تفسير بعض خصائص الملكة اللّغويّة، من ذلك – مثلاً– ما ذكره قائلاً: « أكثر الخصائص أوّلية للملكة اللّغويّة هي خصّيصة اللاّنهائيّة المتمايزة: تجد جملاً مكوّنة من ستّ كلمات، أو جملاً مكوّنة من سبع كلمات، لكنّك لا تجد

---

[3] - ميشال زكّرياء، الألسنية التّوليديّة التّحويلية وقواعد اللّغة العربية (الجملة البسيطة) المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت – لبنان. ط2، 1986..ص 7.

[4] - Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, Larousse-Bordas/VUEF 2002. P100.

[5] - ميشال زكّرياء، الألسنية التّوليديّة و التّحويلية وقواعد اللّغة العربية (الجملة البسيطة)، ص 7.

جملا مكوّنة من ستّ كلمات ونصف. فضلاً عن ذلك، لا يوجد حدّ: يمكنك أن تجد جملاً مكوّنة من عشر كلمات أو عشرين كلمة إلى آخره إلى ما لانهاية. هذه هي خصّيصة اللاّنهائيّة المتمايزة. هذه الخصّيصة مجهولة تقريبا في العالم الأحيائي.».[6]

وبناءً على هذا فإنّ مفهوم التّفسير، في نظريّة النحو التّوليدي التّحويلي – وعند تشومسكي بالأخصّ– يضلّ متعلّقا دائمًا بالأسئلة التي تُطرح حول اللّغة وطبيعتها وخصائص أنظمتها، وعلاقاتها بالعلوم الأخرى وجميع الظّواهر الكونيّة.

[6] - نعوم تشومسكي، بُنيان اللّغة، ترجمة: إبراهيم الكلثم. دار جداول للنّشر والتّوزيع. بيروت – لبنان.ط1، 2017.ص 77.